المحاضرة السادسة

الفسيفساء قبل العصرالاسلامي

حرص الإنسان منذ أطواره الأولى عندما كان ٌيعيش فَّي الكهوف على أن ٌزين جدران كهفه بصور الحيوانات التَّي كان يعيش علٌيها اعتقادا منه بؤن تمثٌلها على جدران الكهوف ستمكنه من السٌطرة علٌيها؛ لذلك جاءت بعض هذه الصورتمثل حيوانًا أصيب بنبال أو سهام أو أي سلاح كان ٌيستخدمه الإنسان يومئذ . كان هذا بالنسبة للعصور الحجرية القديمة وخير ما ٌمثل هذه العصور الصور التَّي زينت بها الكهوف المكتشفة فَّ أسبانيةو فرنسا.

أما بالنسبة للعصور التاريخية القديمة ، فإن الأهداف من الرئيسة من الرسوم الجدارية كانت ولا شك الزخرفة والزينة وتتخذ في الوقت نفسه تأخذ اغراضا تعبدية وشعائرٌيةوأقدم ما اكتشف من صور جدارٌية مهمة لهذه العصور في تل العقٌر (٣٣•• ق. م) الذي نقبت فٌيه مدٌيرية الآثار العراقية في عام ١٤٩١ م حٌيث عثرت فَّي معبد مقام على مصطبة مزٌينة بصورادمية ورسوم فهود ونمور وتعد هذه الصور من أجمل ما وصل إلٌنا من الرسوم الجدارٌة. وقد تطورت هذه الرسوم الجدارٌة لدى الإنسان مع تطوره فَّ الحٌاة فؤخذت شكل البٌئة الحدٌدة التَّ كان الإنسان ٌنتقل إلٌها عندما كٍادر كهفه، وانتشر فَّ السهول والودٌان، فؤخذ بؤسباب المدنٌة الجدٌدة، حٌث عرٌ السكن فَّ البٌوت المبنٌة باللبن المشوي والحجارة والطابوق، فكان طبٌعًا أن تؤخذ الرسوم الجدارٌة شكا هذا التطور، مثال ذلك استخدامه لمادة الملبط والحص الذي كان ٌك ٌا جدران البٌوت المبنٌة بالمواد المذكورة، حٌث وجدها صالحة لأن ٌزٌن هذه الجدران بصور مائٌة وبؤلوان مختلفة. وهنا بدأ ٌبرز الجانب الفنَّ فَّ عمله هذا. فلما عرٌ الإنسان مادة الطلبء توصل إلى فن التزجٌج، وبدأ ٌستعمل الطابوق المزجج فَّ إخراج الأشكال الزخرفٌة الملبئمة لفوقه وذوق العصر ٌومئذ. وقد انتشرت عبر العصور هذه الطرق لتزٌٌن الجدران، وقد أقبل العرب قبل الإسلبم على زخرفة عمائرهم المختلفة بهذه الرسوم والزخارٌ المتنوعة وقد أشار الأزرقَّ. إلى أن جدران الكعبة كانت تزٌنها رسوم مختلفة كان من بٌنها صورة تمثل إبراهٌم الخلٌل علٌه السلبم ورسوم عدٌدة للملبئكة ورسوم أشجار وصورة للعذراء وفَّ حجرها السٌد المسٌح علٌه السلبم. وقد كان لفن الرسوم الجدارٌة امتدادا إلى العصر الإسلبمَّ، حٌث استخدم العرب طرقا متعددة فَّ تزٌٌن وزخرفة جدران الأبنٌة الدٌنٌة والمدنٌة كالرسم بالألوان المائٌة والفسٌفساء واستخدام الطابوق فَّ إبراز الأشكال الزخرفٌة المطلوبة، كما اتخذوا طرٌقة

1

استعمال البلبطات الخزفٌة أو تربٌعات القاشانَّ للئرض المذكور. وسٌقتصر بحثنا هنا على فن الفسٌفساء.

والفسٌفساء من الفنون التَّ زاولها العرب فَّ العصر الإسلبمَّ وقد ذاعت هذه الطرٌقة فَّ شتى الأقطار العربٌة والإسلبمٌة، حٌث أقبل الفنانون على استخدامها فَّ زخرفة وتزٌٌن

جدران وأرضٰات الأبنٰة المختلفة. والفسٰفساء من زخر فٓ ٌتمثل فٓ قطع صغٰٗرة الحجم نصاغ ضمن قوالب معٌنة قد تكون من الزجاج الملون ومن الصدٓ أو الأجر أو البلور الملون بؤلوان مختلفة ثم تجمع القطع التٓ ٌتكون منها الشكل بعضها إلى بعض وتثبت بواسطة الحص أو الملبط وإذا أردنا أن تتبع الجدور التارٌخٌة لصناعة الفٌفاء، فإننا نستطٌع أن نقول إن أصل فكرة الفٌفاء مصدرها العراق وفٓ مدٌنة بابل بالذات حٌث استخدم البابلٌون فٓ تزٌٗن جدران الأبنٰة بإشكال من الطابوق المرجع ذات الرسوم المختلفة . وأن الخبرات الفنٰة الأولى فٓ هذا الاتجاه لهذه الصناعة ٌمكن إرجاعها إلى عصور أقدم معتمدي المخارٌط الفخارٰة ذات الاء الملونة والتٓ شكلت منا مرضعات زخرفٰة ذات أشكال هندسٰة متعددة اكتشفت نماذج منها على الجدران الخارجٰة المعبد الوركاء (1) (ش (11) وهذا الأسلوب فٓ الصناعة قد تطور بشكل واضح فٓ الأجر المزجج الذي. شكلت منه موضوعات فنٰة فٓ كٍأٰة الدقة والجمال فٓ باب عشتار (٠) ش (11) وجدران شارع الموكب) (ش (١٠) وقاعة العرش فٓ بابل (1) (ش ١٩). وٌبدو واضحا أن هذه الصناعة قد انتقلت إلى الأخمٰنٌن الذٌن حكموا العراق خلبل القرن السادس قبل المٌلبد واقتبسوا كثٌرا من عناصر الحضارة العراقٰة القدٌمة، وكان من بٌنها فن التزجٌج (٣). ومعروٓ لدى المعنٌن فٓ دراسة التارٌخ القدٌم أن الاخمٰنٌن نشطوا فٓ حالة السلم وفٓ حالة الحرب مع مراكز الحضارات القدٌمة المطلة على البحر الأبٌض المتوسط، ومنها بشكل خاص بلبد الٌونان حٌث ٌمكننا اعتماد هذه الصلبت الواقعة بٌن الأخمٰنٌٗن والٌونان والتٓ وصل فٌها الأخمٰنٌون إلى قلب أثٌنا،ٌمكننا اعتماد ذلك دلٌلب على انتقال المإثرات العراقٰة عن طرٌق الأخمٰنٌٗن إلى بلبد الٌونان. وٌمكن أن تستخلص من كل ما سبق ذكره أن فكرة الفسٰفساء إنما ابتكارٌعود بالدرجة الأولى إلى الأعمال الفنٰة التٓ أشرنا إلٌها فٓي العراق، ولميبك الٌونان أو كٍٗرهم .

وقد تطورت هذه الصناعة بصورة تدرٌجٰة فظهرت الفسٰفساء، وبعد استخدام الفسٰفساء تطورا طبٌعٰا لاستخدام الطابوق المزجج لأن الصناع لم أخذوا فٓ تصغٰٗر حجم الطابوق إلى أقل قدر ممكن حتى تتعدد الألوان وتكون الصور الملونة أكثر بهجة والتفاصيل أكثر وضوحا.